الفصل السادس
دور الإضافات التى قدمها الاجتماعيون العرب لتطور الفكر الاجتماعى عند الغربيين

المقدمة

١ - ضرورة الاجتماع البشرى.

٢ - الاستاتيك والديناميك.

٣ - تصنيف المجتمعات.

٤ - التغير الاجتماعى.

٥ - الصراع الاجتماعى.

obeikandl.com

obeikandl.com

المقدمة:

لقد قدم المفكرون الاجتماعيون العرب إضافات اجتماعية متعددة ساهمت فى تطور الفكر الاجتماعى الغربى، وأرسوا القواعد الأساسية للفكر الاجتماعى العربى بصورة عامة والفكر الاجتماعى الغربى بصورة خاصة من خلال ما قدموه من بحوث ودراسات فى مجال الفكر الاجتماعى(١).

ولكى نوضح دور هذه الإضافات لا بد من التطرق إلى ما جاء به المفكرون الغربيون من إسهامات فى الفكر الاجتماعى ومقارنتها بالإسهامات التى سبقهم بها المفكرون الاجتماعيون العرب وهى ما يلى:

١ - ضرورة الاجتماع البشرى:

لقد ظهر فى أوروبا عدد كبير من المفكرين الاجتماعيين الذين طوروا الدراسات الاجتماعية فى مجالات كثيرة ومهمة.

وأوضحوا الأسباب التى دفعت الإنسان إلى تكوين المجتمع والدولة ومنح الدولة الصلاحيات المطلقة لقيادته والتصرف بشؤونه، وشخصوا المعالم الأساسية التى تلعب الدور الفعال فى تكوين المجتمع(٢).

إن العالم جون لوك يؤكد على أن الإنسان كان فى حالة طبيعية يعيش حراً ويتصرف على أساس عقلى، ويعترف بوجود الفطرة كحقيقة تاريخية ولكنه ينظر إليها من منظور اجتماعى، حيث يقول: إن الأفراد متساوون فى الحقوق والواجبات بالطبيعة باعتبارهم أفراداً فى مجتمع طبيعى(٣).

---

(١) الحسن، إحسان محمد (الدكتور)، الأوليات التاريخية لاهتمامات العرب بعلم الاجتماع، المورد، المجلد الخامس عشر، العدد الثالث، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦، ص ٦٨.

(٢) سباين، جورج، تطور الفكر السياسى، ترجمة حسن جلال العروسى، ج١، دار العارف بمصر، القاهرة، ١٩٧١، ص ٣٠ - ٣٥.

(3) Locke, J. Essays Con Cerning Toleration, London, 1942, pp. 9 - 11.

مما تقدم يمكننا القول أن لوك يركز على فكرة كون الإنسان اجتماعى بالفطرة وهذا يذكرنا بتفسير الفارابى الذى يؤكد على أن الإنسان مدنى بالطبع، وهو بفطرته محتاج من الناحيتين المادية والمعنوية إلى أشياء كثيرة وليس فى وسعه أن يستقل بأدائها ولا يقوى على تحقيقها منفرداً وقال: «كل واحد من الناس مفطور على أنه يحتاج فى قوامه وفى أن يبلغ أفضل كمالاته إلى أشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها كلها، بل يحتاج إلى قوم يقوم له كل واحد منهم بشىء مما يحتاج إليه وكل واحد من كل واحد بهذه الحالة» لهذا كثرت أشخاص الناس فحصلوا فى المعمورة من الأرض، فحدثت منها الاجتماعات الإنسانية[1].

ويضيف لوك بأن الحياة تزداد تعقيداً يومًا بعد يوم مما دفع الأفراد إلى الاتفاق على شخص ما يتولى تنفيذ القانون، وهنا يؤكد على أهمية القانون فى تكوين المجتمع الإنسانى، ولو رجعنا إلى أعمال المفكرين العرب لوجدنا أن الغزالى يركز على نقطتين أساسيتين فى تفسيره لحقيقة الاجتماع الإنسانى هما طبيعة الإنسان القوى المحركة له ودراسة النظم والمؤسسات من ناحية أصولها ووظائفها وطريقة تحولها من نمط إلى نمط آخر[2].

غير أن الغزالى فى دراسته للنظم والمؤسسات يؤكد على دور القانون فى ظهورها وبلورتها، علمًا بأن القانون يأتى من الجانب الروحى للمجتمع، والذى يعمل على تنظيم المجتمع وتهذيب سلوك الفرد ورسم الطريق القويم الذى يسير المجتمع فى خطه[3].

ولعل من المفيد هنا أن نذكر بأن آراء الغزالى هى آراء تتشابه مع آراء علماء التحليل النفسى أمثال جارلس كولى ووستر مارك، حيث يرى كولى بأن الفرد والجماعة

---

(١) الفارابى، أبو نصر، كتاب أهل المدينة الفاضلة، تقديم وشرح إبراهيم جزينى، منشورات دار القاموس الحديث، بيروت، ١٩٧٦، ص ٨٠ - ٨٥.

(٢) الحسن، إحسان محمد (الدكتور)، علم الاجتماع السياسى، مطبعة جامعة الموصل، ١٩٨٤، ص ٣٦ - ٣٩.

(٣) غيث، محمد عاطف (الدكتور) وآخرون، تاريخ التفكير الاجتماعى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٧، ص ٤٢.

كلاهما مكمل للآخر على اعتبار أن الفرد يجسد طبيعته الحقيقية فى المجتمع على أساس أن الذات من وجهة نظره ذات عاكسة، أى تعكس صورتها فى عقول الآخرين، ومن ثم تأخذ فى الاعتبار حكم الآخرين عليها.

أما وستر مارك فإنه يرى بأن كل النظم الاجتماعية ذات ظروف اجتماعية بطبيعتها، وأن المجتمع هو الذى يحدد خصائص تلك النظم التى يتكون منها[١].

أما العالم جان جاك روسو، فيعتقد بأن غريزة الإنسان الاجتماعية وحبه للصالح العام ورغبته فى نشر العدالة الاجتماعية هى التى حفزته على إنشاء المجتمع والدولة، ويضيف روسو أيضًا أن كل واحد منا يسهم فى تكوينه من خلال قدرته وإرادته، وأن جوهر التعاقد الاجتماعى هو التنازل الكامل من جانب كل مشارك عن جميع حقوقه للجماعة كلها والرغبة فى العيش مع الجماعة[٢].

وإن شعور الفرد برغبته فى الحياة الاجتماعية هو شعور فطرى، ولهذا يمكن اعتبار ابن خلدون من أنصار فكرة التعاقدية التى تبنى عليها العلاقات الاجتماعية، حيث يؤكد ابن خلدون على أنه متى ما تحققت الضرورة الاجتماعية عند الناس وأصبح هؤلاء قادرين على الاستمرارية والبقاء، تظهر السلطة فى المجتمع حتى تنظم علاقاتهم تنظيمًا يكفل استقرار المجتمع ونموه، ولهذا فإن ابن خلدون كما يعترف علماء وأساتذة الغرب المنصفون كان السبَّاق فى تفسير حقيقة الاجتماع البشرى[٣].

إن المفكر وليم هيجل هو الذى ابتدع قانون الدالكتيك الذى يهدف إلى حل المتناقضات والأضداد بين الأفكار والأفكار المضادة حلاً وسطًا، وذلك من خلال الاعتراف بصحة جزء من الأفكار وجزء من الأفكار المضادة والتوحيد بينها واشتقاق

---

(1) Charles, H. Cooley, Social Organization, A Study of The Mind, The Free Press, N.Y., 1965, p. 23 - 31.

(٢) روسو، جان جاك، أصل التفاوت بين الناس، ترجمة عادل زعيتر، دار المعارف بمصر، ١٩٥٤، ص ١٠٤.

(٣) ميشيل، دينكن (البروفسور)، معجم علم الاجتماع، ترجمة د. إحسان محمد الحسن، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨١، ص ١٢٠.

أفكار جديدة تختلف عن جميع الأفكار المطروحة على بساط البحث الفلسفى والعلمى[١].

وقد استعمل هيجل هذا القانون فى فهم التاريخ وفهم المجتمع البشرى، حيث قال بأن الدولة وليدة العائلة، وأن المجتمع المدنى وليد العائلة أيضًا، حيث اعتبر العائلة الوحدة الأساسية فى تكوين المجتمع، وبهذا يمكن ملاحظة تأثره بالغزالى الذى سبقه بقرون عديدة، والذى اعتبر الفرد هو الوحدة الأساسية لبناء الجماعة كالعائلة مثلاً ومن ثم المجتمع.

ولهذا بذل الغزالى قصارى جهده فى دراسة الإنسان وفهم كوامنه وتحديد الدوافع الأساسية لحركته ونشطه الذاتى والمجتمعى[٢].

أما العالم الإيطالى فلفريدو باريتو الذى فسر السلوك بالذهاب إلى الرواسب التى هى النفس العاملة والمشتقات التى هى النفس العالمة، يقول بأن المشتقات تخدم أغراض الرواسب.

لقد اعتمد باريتو فى تفسير حقيقة السلوك الاجتماعى على نظرية الرواسب والمشتقات التى استفاد منها أيضًا فى تفسير مؤسسات المجتمع من حيث أصولها ووظائفها وبنائها وعلاقتها الواحدة بالأخرى.

وأكد باريتو فى أحد مقالاته على أهمية دراسة النظريات اللامنطقية، هذه النظريات التى تعتبر تفسيرات فلسفية ومثالية لظواهر لا يمكن تحليلها وشرحها بواسطة العلوم الطبيعية، وهذه التفسيرات حسب اعتقاده تكمن فى عنصرين أساسيين العنصر الدائم الذى سماه بالرواسب والعنصر المتغير الذى سماه بالمشتقات[٣].

فالرواسب (Residues) تعكس العواطف الإنسانية وحالات العقل الشعورى التى

---

(1) Hegel, W.F. Leatures on The Philosophy History, Bol. 3, London, 1956, p. 55.

(٢) الخشاب، أحمد (الدكتور)، التفكير الاجتماعى، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

(٣) دينكن، ميشيل (البروفسور)، معجم علم الاجتماع، ترجمة د. إحسان محمد الحسن، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠، ص ٢٥١.

يمكن مشاهدتها فى المجتمع الإنسانى مهما كان نوعه قديمًا، حديثًا بدائيًا أو متقدمًا، وغالبًا ما تكون الرواسب مقنعة أو متنكرة فى أشكال وصيغ مختلفة، غير أنه يمكن كشفها وتعريتها وفضح حقيقتها والتوصل إلى أهدافها ومقاصدها من خلال الفحوصات والاختبارات الاجتماعية.

٢ - الاستاتيك والديناميك:

لقد درس العالم أوكست كونت الفروق الأساسية بين السكون الاجتماعى والديناميك الاجتماعى دراسة علمية، وأوضح بأن السكون الاجتماعى يهدف إلى الوصول إلى قوانين التعايش أو القوانين التى تفسر المجتمع بحالته الساكنة، بينما الديناميك الاجتماعى يهدف إلى الوصول إلى قوانين التغير التاريخى التى تفسر المراحل التاريخية والحضارية التى يمر بها المجتمع[١].

إلا أن السكون الاجتماعى ما هو إلا دراسة تعتمد على ظروف الوجود الاجتماعى التى تعتمد على درجة فهمنا للعلاقات الحتمية بين أجزاء الكائن الاجتماعى.

إن نظرية كونت عن الديناميكية الاجتماعية تعتمد على فكرتين أساسيتين هما فكرة أو قانون الأطوار الثلاثة، وفكرة أو قانون تقدم الإنسانية، وقانون المراحل الثلاث يشمل كل ميدان من ميادين المعرفة وهى: المرحلة اللاهوتية والمرحلة الميتافيزيقية والمرحلة الوضعية[٢].

وأضاف كونت بأن الديناميكية الاجتماعية معنية بالتطور الذى ينتج عن العلاقة بين الأنظمة الأساسية لمختلف المجتمعات، وخلال مختلف المراحل التاريخية.

إذن فالديناميكية الاجتماعية تبدأ بدراسة النمو فى ذاته، ولكن كونت يذهب شأن معاصريه إلى أن النمو هو نمو تقدمى، والتقدم ظاهرة ملحوظة فى كل المجتمعات الإنسانية، بينما يلاحظ كونت بأن الاستاتيك الاجتماعى بحكم موضوعه هو دراسة تحليلة فى حين أن الديناميك الاجتماعى ينبغى أن يكون دراسة تجريبية.

---

(١) دينكن، ميشيل (البروفسور)، معجم علم الاجتماع، ترجمة د. إحسان محمد الحسن، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠، ص ٣٥١ - ٣٥٢.

(٢) تيما شيق، نيقولا، نظرية علم الاجتماع، طبيعتها وتطورها، ترجمة د. محمد عودة وآخرون، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٣، ص ٥٦.

أما المشتقات (Derivations) فهى الوسائل أو السبل التى من خلالها تنفذ الرواسب أو هى الأشياء التى تختفى خلفها الرواسب[١].

إن الرواسب عند باريتو حالات عقلية ثابتة فى العقل البشرى توجد فى كافة المجتمعات بالرغم من أن التعبير عنها يختلف من مجتمع إلى آخر. وليس من شك أن لهذه الرواسب جذور بيولوجية ونفسية فى الطبيعة البشرية ذاتها.

يتضح لنا أن الرواسب ليست هى العواطف، ولكنها حالات عقلية تتوسط العواطف والتغيرات السلوكية، ثم هى وإن كانت متصلة بالغرائز إلا أنها لا تشمل كافة الغرائز البشرية[٢].

أما المشتقات فهى مظاهر سلوكية متغيرة أو تعبيرات لفظية وصيغ يصوغها الناس فى صورة منطقية وقالب يخفى ما يترسب فى القاع من سلوك غير منطقى له تأثير فعال على السلوك الاجتماعى العام.

ولعل من المفيد أن نذكر هنا بأن آراء الغزالى تتشابه مع آراء وأفكار باريتو، حيث إن الغزالى يقسم النفس البشرية على قسمين هما النفس العاملة (وهى أساس القوة العضلية عند الإنسان وأساس الصفات البيولوجية التى تميزه عن بقية الكائنات) والنفس العالمة التى تقع فى منطقة العقل، لذا فهى تحدد الذكاء عند الإنسان وترسم صورة أخلاقية وقيمة مقاييسه ومثله وتوضح طبيعة ميوله واتجاهاته ومصالحه وتفكيره وأهدافه، ويوضح الغزالى بأن النفس العالمة هى التى تسيطر على النفس العاملة، فى حين يؤكد باريتو بأن المشتقات تخدم أغراض الرواسب.

أما العالم دوركهايم فإنه يوضح بأن الفرد منذ ولادته يجد نفسه محاطًا بأحكام وقوانين اجتماعية قسرية لا يستطيع تغييرها أو التقليل من أهميتها، والشىء الوحيد الذى يستطيع الفرد القيام به هو إطاعة القوانين والاستسلام لأوامرها[٣].

---

(1) Hinkle, R. The Development of Modern Sociology, Random House, New York, 1963, p. 50.

(2) Pareto, N. Mind and Society Vol. 1, New York, 1963, pp. 499 - 500.

(3) Durkheim, E., The Rules of Sociological, New York, The Free Press, 1950, pp. 110 - 120.

وحسب رأى دوركهايم بأن الجماعة هى أساس تكوين المجتمع لأن الفرد يستمد قوته وأفكاره وقيمته من الجماعة وعليه يجب دراسة الجماعة التى هى أساس تكوين المجتمع الإنسانى[١].

ولو تتبعنا آراء الغزالى من خلل دراسته لطبيعة الاجتماع الإنسانى نجد بأن الغزالى يؤكد على أن الجانب الروحى للمجتمع هو الذى يعمل على تنظيم المجتمع وتهذيب سلوك الفرد ورسم الطريق الصحيح الذى يسير المجتمع فى خطه[٢].

وهنا فإن دوركهايم يتفق مع الغزالى فى أن المجتمع هو الذى يوجه ويقوم الفرد ويهذب سلوكه، ولكنه يختلف معه فى أن الفرد هو الوحدة الأساسية لبناء الجماعة والمجتمع، فى حين يرى دوركهايم بأن الفرد يذوب وسط الجماعة والمجتمع المحلى بحيث لا يستطيع التأثير فيها أبدًا، بل يخضع لها خضوعًا تامًا وأنه لا حول ولا قوة له فى تغيير الظواهر الاجتماعية[٣].

مما تقدم يمكننا القول بأن العرب قد تناولوا الاجتماع الإنسانى بالبحث والدراسة وأوضحوا الحقيقة الأساسية التى يتكون منها هذا الاجتماع ومهدوا الطريق أمام العلماء الغربيين لتطوير الفكر الاجتماعى بصورة عامة، ولكن بالطريقة التى تتلائم مع تفكيرهم وبيئتهم وحاجاتهم ومعطيات عصرهم.

أما السكون الاجتماعى فيقصد به دراسة المجتمعات الإنسانية بكل تفاصيلها وجزئياتها فى حالة الاستقرار من أجل الوصول إلى القوانين التى تحكم تلك المجتمعات وتساعد على تضامنها وتماسكها.

وحدد كونت عناصر المجتمع خلال تحليله السكون الاجتماعى بثلاثة عناصر هى: الفرد والعائلة والدولة، ويعنى بالسكون الاجتماعى العلاقة بين الظواهر والعمليات

---

(١) الحسن، إحسان محمد (الدكتور)، علم الاجتماع، دراسة تحليلية فى النظريات والنظم الاجتماعية، مطبعة التعليم العالى، بغداد، ١٩٨٨، ص ١٤٨.

(٢) الغزالى، أبو حامد، المنقذ من الضلال، اللجنة الدولية للترجمة والروائع، بيروت، ١٩٥٩، ص ٤١ - ٤٢.

(3) Coser, I. Durkheim`s Conservatism and its Implic at ians for his Sociological Theory, Chicago University Press, 1948, p. 213.

الاجتماعية وتكامل بعضها مع بعض من خلال نقطة زمنية محددة وتداخل المؤسسات وأداء كل منها وظائفه المحددة خدمة لاستمرارية الكل الاجتماعى[١].

أوضح كونت بأن علم الاجتماع يقسم على قسمين رئيسيين هما الاستاتيكية (الاستقرار) والديناميكا (التطور) وتهتم الاستاتيكا بدراسة الشروط الضرورية لوجود المجتمع الإنسانى، ومن ثم فإن التركيز يكون أساسًا على النظام العام، ودراسة النظام العام هى دراسة عوامل التوازن والتناغم والانسجام فى بنية المجتمع، ويوضح كونت بأن الاستاتيك هو الارتباط الماثل فى عقل الباحث، بحيث يجتهد فى العثور على أفضل المناهج والطرق الملائمة لدراسته.

إن الدراسة الاستاتيكية للنظام الاجتماعى تشبه ما اصطلح على تسميته بلغة علم الاجتماع المعاصر باسم البناء الاجتماعى، ذلك أنها دراسة عضوية تتجه نحو التركيز على الكل وذلك لأنه يحكم مسألة الاتساق، فالأجزاء يمكن فهمها فى إطار العلاقة المتبادلة بينها وبين الكل، ومن ثم فإن بؤرة هذه الدراسة تتمثل فى التركيز على الصلات المتبادلة بين الوقائع الاجتماعية. وقد ركز كونت على عدد من الوحدات الأساسية مثل الأسرة وتقسيم العمل والملكية والحكومة والدين والأخلاق[٢].

إن الأفكار التى تناولها كونت جاءت معتمدة على أفكار ابن خلدون التى درسها قبل ظهور كونت بأكثر من ثلاثمائة سنة.

لقد درس ابن خلدون النظم العمرانية دراسة سكونية وديناميكية فى آن واحد، أى أنه درس النظم العمرانية فى حالة ثبوتها خلال فترة زمنية طويلة، حيث درس الظواهر السياسية فى الفصل الثالث من مقدمته، ودرس الظواهر الاقتصادية فى الفصل الخامس ودرس الظواهر التربوية فى الفصل السادس وعرض فى ثنايا دراساته طائفة كبيرة من الظواهر العائلية والأخلاقية والجماعية وغيرها من الظواهر الأخرى[٣].

---

(١) نفس المصدر السابق، ص ٥٨ - ٥٩.

(٢) محمد، محمد على (الدكتور)، تاريخ علم الاجتماع، الرواد والاتجاهات المعاصرة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩، ص ٧٠ - ٧٨.

(٣) دينكن، ميشيل (البروفسور)، معجم علم الاجتماع، ترجمة د. إحسان محمد الحسن، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠، ص ٣٥٣.

ويضيف ابن خلدون فى دراساته الاجتماعية بأن الاستاتيكا الاجتماعية عبارة عن دراسة لبحوث فلسفة التاريخ أو دراسة الحضارة الإنسانية من ناحية تطورها وتنقيحها واستكمال دراستها وتخليصها من صبغتها الفلسفية والامتثال للمنهج العلمى[1].

ويهدف السكون الاجتماعى إلى معرفة الشروط الأساسية أو الضرورية للوجود الاجتماعى التى هى التعاون الذى لا بد أن يحدث بين الأفراد المختلفين من حيث نزعاتهم ورغباتهم وتطلعاتهم، إلا أنهم يتفقون فى غريزة حب الغير التى تعلم على إيجاد نوع من التعاون بينهم.

أما الديناميكا الاجتماعية فهى دراسة الحركات والتغييرات التى تطرأ على نظم المجتمع وبنائه الاجتماعى، وهى عبارة عن طائفة من البحوث التى سبق بها أوكست كونت واشتهرت باسم فلسفة التاريخ أو دراسة الحضارة الإنسانية من ناحية تطورها، وأكمل دراستها ونقحها من صبغتها الفلسفية، ونهج فى علاج حقائقها نهجًا علميًا، وبهذا فإن ابن خلدون قسم الاستاتيكا الاجتماعية إلى جزئين هما دراسة الطبيعة البشرية من ناحية ودراسة الطبيعة الاجتماعية من ناحية أخرى[2].

وخلاصة ما تقدم أن ابن خلدون درس الظواهر الاجتماعية قبل أوكست كونت وغيره من المفكرين الأوروبيين فى حالة سكونها وحركتها، أى فى حالة استقرارها وتطورها، حيث درس ابن خلدون الظواهر الاجتماعية فى الحالة التى هى عليها فى مكان وزمان معينين إذ كان يدرس عناصر الظاهرة وأجزاءها ووظائفها وما إلى ذلك من مسائل الدراسة السكونية، ويدرس فى الوقت نفسه تطورها والقوانين التى يخضع لها هذا التطور، ولذلك فإن ابن خلدون كان سباقًا فى الربط بين الناحيتين التشريحية والتطورية فى دراساته الاجتماعية.

ومن الجدير بالذكر أن ابن خلدون قرر دراسة الظواهر الاجتماعية بهذا الأسلوب الذى لم يسبقه أحد فيه، حيث قال: «وسلكت فى ترتيبه وتبويبه مسلكًا غريبًا،

---

(١) وافى، على عبد الواحد (الدكتور)، عبقريات ابن خلدون، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٢١١.

(٢) عبد الباقى، زيدان (الدكتور)، التفكير الاجتماعى، نشأته وتطوره، مطبعة دار الفكر العربى، ط٣، القاهرة، ١٩٨١؛ ص ١٨٥ - ١٨٩.

واخترعته من بين المناحى مذهبًا عجيبًا وطريقة مبتدعة وأسلوبًا فريدًا وشرحت فيه أحوال العمران والتمدن[١].

٣ - تصنيفات المجتمعات:

لقد استفاد علماء ومفكرو الغرب من التراث العربى فى تصنيف المجتمعات الإنسانية، ويظهر ذلك واضحًا من خلال تقسيمهم للمجتمعات البشرية.

قسم العالم كونت المجتمع البشرى على ثلاثة أنواع، وهى المجتمعات اللاهوتية الدينية التى تهتم بالدين الذى له أثر واضح فى الحياة الاجتماعية، وتغلب العواطف والانفعالات على أفكار الناس وتجعلهم خائفين من قوة سماوية هائلة.

أما النوع الثانى وهو المجتمع الفلسفى أو المثالى الذى يتميز بالتفكير الموزون والأمثال الحية والحكم والبلاغة الفكرية والمآثر البطولية. وأخيراً المجتمع الوضعى حيث استطاع كونت تحقيق أهدافه الرامية إلى إصلاح المجتمع وتحسين أوضاعه.

ويرى كونت أن كل مجتمع قد مرّ بهذه الحالات، أى أن الإنسانية فى أدوار تقدمها شأنها شأن الفدر فى مراحل نشأته ونموه وتقدمه، ويضيف كونت بأن الإنسانية كلها لا تتحرك فى صورة مماثلة وإنما هناك مجتمعات إنسانية متنوعة بعضها أخذ فى النمو وبعضها متقدم.

لقد سبق ابن خلدون أوكست كونت وغيره من علماء الغرب بخمسة قرون عندما صنف المجتمعات البشرية إلى صنفين أساسيين لهما صفات مماثلة للصفات التى تتسم بها المجتمعات التى أشار إليها أوكست كونت. فقد قسم ابن خلدون المجتمعات إلى مجتمعات بدوية متنقلة تتميز بالشجاعة والعصبية وتهتم بالضرورى من الأشياء وتبتعد عن الكماليات، ويسيطر الدين على أنشطة هذه المجتمعات التى أطلق عليها كونت المجتمعات الدينية[٢].

أما النوع الثانى من المجتمعات التى أشار إليها ابن خلدون فهى المجتمعات

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، الجزء الأول، دار القلم اللبنانى، بيروت، ١٩٧٨، ص ٤.

(2) Shnidt, N. Ibn Khaldun, New York, Columbia University Press, 1930, p. 29 - 31.

الحضرية وهى مـجتمعات أكثر تقـدمًا وتتميز بالاستـقرار، إذ يقطن أفرادها داخل المدن والقصبات ويعتمـدون فيها على الصناعة والزراعة والتجارة وهى تشبـه تمامًا المجتمعات المثالية التى أشار إليها كونت وسماها بالمجـتمعات المثالية، وبهذا فإن تأثر أوكست كونت يبدو واضحًـا بآراء وأفكار من سبقـوه من المفكرين العرب وخصوصًـا المفكر العربى ابن خلدون.

أما العالم هربرت سبنسر فقد اعتمد على مبدئين أساسيين فى تصنيفه للمجتمعات وهما مبدأ تصنيف المجتمعات على أساس درجة التركيب ويشمل المجتمعات الآتية:

أ - المجتمعات السيطة:

وهى المجتمعات التى تؤلف وحدات كليـة بسيطة ولا تخضع لأية مؤثرات أخرى خارجة عن نطاقها، بحيث تتعاون الأجزاء المكونة لها من أجل تحقيق أهداف عامة سواء وجد فى هذه المجتمعات مركز يتولى التنظيم أو لم يوجد[1].

ب - المجتمعات المركبة:

وهى تلك التى يوجد للمـجتمعـات البسيطة المكونة لها رؤسـاء لديهم درجة من الاستقلال النسبى ولكنهم يخضعون جميعًا للرئيس الأعلى.

جـ - المجتمعات المزدوجة التركيب:

وهى التى تتكون من اتحـاد الجماعات المركـبة على نحـو يؤدى إلى ظهور أشكال أكثر تعقيدًا للتنظيم الاجتماعى تعتمد على الحكومات المستقرة.

د - المجتمعات المتحضرة:

وهى مجتمعات شديدة التركيب تشـمل الإمبراطوريات الكبرى أو اتحاد مجموعة أمم سواء فى العصور الحديثة أو القديمة[2].

---

(1) Martindale, Don, The Nature and Types of Sociological Theory, Boston, Houghton, Mifflin Co. 1981, p. 84.

(2) Coser, L. Masters of Sociological Thought, New York, Harcourt Brace, 1977, p. 101.

أما المبدأ الثانى الذى اعتمده سبنسر فى تصنيفه للمجتمعات فهو مبدأ تشييد النماذج والأنماط ويشمل المجتمعات التالية:

أ - المجتمعات العسكرية:

وهى المجتمعات التى تقوم على التعاون الإجبارى، كما أنها تتميز بوجود سلطة مركزية ومستويات عالية للضبط الاجتماعى، والقائد العسكرى فى هذه الأنواع من المجتمعات هو قائد سياسى ويتمتع بقوة مسيطرة على جوانب الحياة المختلفة[1].

ب - المجتمع الصناعى:

وهو على عكس المجتمع العسكرى فالتعاون فيه اختيارى والتنظيم الاجتماعى السائد يوجه بصورة كلية نحو تحقيق مزيد من الإنتاج والرفاهية الاقتصادية للمواطنين.

إن هذا التصنيف من المجتمعات ما هو إلا امتداد لتصنيف ابن خلدون الذى قسم المجتمعات البشرية إلى مجتمعات بدوية ومجتمعات حضرية لها نفس الصفات التى أشار إليها سبنسر فى تصنيفه للمجتمعات. ومن خلال هذا فإن سبنسر هو الآخر قد استفاد من أفكار ودراسات المفكرين العرب فى تصنيف المجتمعات الإنسانية. وأضاف سبنسر بأن المجتمعات فى حالة حركة مستمرة وسائرة نحو هدف معين وهذه الحركة تمر فى صيغة بسيطة وواطئة (البداوة عند ابن خلدون) إلى صيغة معقدة ومتحضرة ومتشعبة (المجتمعات الحضرية) وأن كل مجتمع لا يشبه الآخر.

أما العالم دوركهايم فقد أوضح من خلال مقارنته بين المجتمعات القديمة والمجتمعات الأكثر تطوراً، بأن الأولى تتميز بوجود نوع من التضامن الميكانيكى والثانية يسود فيها التضامن العضوى. وأضاف بأن المجتمع الذى ينتشر فيه التضامن الميكانيكى والثانية يسود فيها التضامن العضوى. وأضاف بأن المجتمع الذى ينتشر فيه التضامن الآلى مجتمع يغلب عليه تجانس فى الأفكار والمعتقدات والعادات والآراء، وطرائق السلوك الفردى والجماعى[2].

---

(١) الحسن، إحسان محمد (الدكتور)، علم الاجتماع، دراسة تحليلية فى النظريات والنظم الاجتماعية، مطبعة التعليم العالى، بغداد، ١٩٨٨، ص ٩٠ - ٩٠.

(٢) تيما شيق، نيقولا، نظرية علم الاجتماع، طبيعتها وتطورها، ترجمة د. محمد عودة وآخرون، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٣، ص ١٧٢.

وأساس تصنيف المجتمعات عند دوركهايم يقوم على درجة تركيبها وذلك بأن يتخذ أبسط المجتمعات تركيبًا أو المجتمع المكون من جزء واحد أساسًا للتصنيف[1].

ومما تقدم يتضح لنا أن دوركهايم قسم المجتمعات على نوعين، وهى المجتمعات الميكانيكية أى المجتمعات البسيطة والصغيرة الحجم، والتى لا تعتمد على مبدأ تقسيم العمل، وتكون درجة تقدمها واطئة ومتخلفة من ناحية التقدم العلمى، وعلاقاتها الاجتماعية قوية ومتماسكة.

أما المجتمعات العضوية فهى المجتمعات المركبة أو المعقدة والتى تتكون من أجزاء متباينة ولكنها متكاملة بعضها مع البعض وتعتمد على تقسيم العمل والتخصص فيه وبمستوى معاشى عالى، وتسودها الزراعة والصناعة والتجارة وتتميز بنضوج درجة تقدمها العلمى والتكنولوجى وتسوده الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية[2].

ولو تمعنا النظر فى هذا النوع من التصنيف لوجدنا أنها تتميز بنفس الصفات التى أشار إليها الفارابى فى تصنيفه للمجتمعات التى أطلق عليها المجتمعات الجاهلة وهى المجتمعات التى لا يسود فيها تقسيم العمل ولا يفكرون بالتعاون ومستواها الاجتماعى متدنى. أما النوع الثانى من المجتمعات وهى المجتمعات الفاضلة التى تعتمد على مبدأ التعاون بين أفرادها وجماعتها، وكل فرد فى هذا المجتمع يتخصص فى أداء عمل معين ويعتمد على أعمال الآخرين.

والتخصص فى العمل وتقسيمه فى هذا المجتمع يؤدى إلى التعاون الذى هو الداعامة الأساسية لبناء المجتمع، ومن خلال ما تقدم يمكننا القول أن الأفكار التى طرحها دوركهايم تتشابه إلى درجة كبيرة مع طروحات ونظريات الفارابى الذى سبقه بقرون عديدة فى التطرق إلى هذه الأنواع من المجتمعات ذات الصفات المتشابهة.

أما العالم هوبهاوس، فقد قسم المجتمعات على أساس العلاقات الاجتاعية على ثلاثة أنواع:

---

(١) دوركهايم، قواعد المنهج فى علم الاجتماع، ترجمة د. محمود قاسم ومراجعة د. السيد بدوى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦، ص ١٩١.

(2) Durkheim, E., Division of Labourin in Society, New York, The Free Press, 1956, p. 130.

أ - المجتمع القرابى (Kindred): وهو المجتمع الذى يرتبط بالنسب القرابى، وهو ذو فعالية وتنظيم قوى من خلال الرابطة الدموية، ويتميز بالملكية العامة وطقوس ومظاهر مشتركة[١].

ب - المجتمع المحلى (Community): يووضح هوبهاوس بأن هذا المجتمع يتميز بوجود قواعد مشتركة وعام للحياة الاجتماعية بحيث تكون علاقات مترابطة ومتميزة بقوانين تنظيم الحياة الاجتماعية وتوفر الوقاية والطمأنينة لكل الأفراد من الأعداء الخارجيين.

جـ - المجتمع (Society): ويتيمز بالعلاقات الاجتماعية المعقدة وفيه علاقات عائلية مثل العلاقات داخل الأسرة بين الوالدين وأطفالهما وعلاقات وقتية مثل العلاقات التجارية (ومثل هذه العلاقات ليس لها توقيت زمنى محدد)[٢].

أما تقسيم هوبهاوس على أساس التقدم الفكرى والتكنولوجى فهو كما يلى:

أ - مجتمعات الصيد.

ب - المجتمعات الرعوية.

جـ - المجتمعات الزراعية.

د - المجتمعات الصناعية.

يتضح مما تقدم أن هوبهاوس اعتمد فى تقسيمه للمجتمعات على مقياس المهنة أساسًا للتصنيف، فمجتمع الصيد يعتمد على مهنة الصيد والمجتمع الرعوى يعتمد على تربية الإبل والأغنام، والمجتمع الزراعى يعتمد على الزراعة بصورة أساسية، أما المجتمع الصناعى فإنه يعتمد على الصناعات اليدوية والصناعات الأخرى التى تدخل فى أمور حياتهم المعاشية[٣].

---

(1) Hobhouse. L. T. Social Development, Its Nature and Condition, George Allen and Unwin Ltd, London, 1960, pp. 40 - 41.

(2) Gold Thorp, J.E, An Introduction to Sociology, Cambridge University Press, 1968, pp. 94 - 95.

(٣) شكارة، عادل عبد الحسين (الدكتور)، نظرية هوبهاوس فى التنمية الاجتماعية، الطبعة الأولى، مطبعة دار السلام، بغداد، ١٩٧٥، ص ١٤٠ - ١٥٠.

أما نظرية ابن خلدون الاجتماعية فى تصنيف المجتمعات فنجده أشار إلى عدة مجتمعات كالمجتمعات المتوحشة والمجتمعات البدوية والمجتمعات الرعوية والمجتمعات القبلية، والمجتمعات الزراعية، والمجتمعات الحضرية التى تقطن فى المدن، فلكل نمط من هذه المجتمعات صفات وخصائص تشبه صفات وخصائص المجتمعات التى أشار إليها هوبهاوس فى سياق تقسيمه للمجتمعات المذكورة أعلاه.

فالمقياس الرئيسى الذى اعتمده ابن خلدون فى تصنيفه للمجتمعات هو مقياس المهنة أيضًا، إذ إن المجتمع البدوى يمتهن الرعى والمجتمع الريفى يمتهن الزراعة والمجتمع الحضرى يمارس الصناعة والتجارة والخدمات(١).

ومما تقدم يتضح لنا أن العالم العربى قد سبق العالم الأوروبى بمئات السنين، فكان العالم العربى قائدًا وأصيلاً ومبدعًا، بينما كان العالم الأوروبى ناقلاً ومقلدًا وتابعًا(٢).

٤ - التغير الاجتماعى:

إن ظاهرة التغير الاجتماعى تعد ملازمة للمجتمع البشرى، فالمجتمع دائمًا فى تغير، وتختلف درجة التغير من مجتمع لآخر، حيث إن بعض المجتمعات تتغير بسرعة وأخرى ببطء، ويقول (ولبرت مور) أن ظاهرة التغير الاجتماعى ليست ظاهرة حديثة، فهناك درجات وأنواع من التغير حدثت فى الخبرة الإنسانية ولكن الاهتمام بالتغير وسرعته يرجع إلى السرعة التى تكونت فيها المجتمعات(٣).

ازداد اهتمام علماء الاجتماع بدراسة التغير الاجتماعى وحاولوا تقديم بعض الأسس والمبادئ التى تحكم المجتمع البشرى، وقد اختلفت النظريات فى تفسير مسيرة التغير فمنهم من يعتقد بأن المجتمع البشرى سائر بخط مستقيم وتدعى هذه النظريات

---

(1) Shnidt, N. Ibn Khaldun, New York, Columbia University Press, 1930, p. 30.

(٢) الحسن، إحسان محمد (الدكتور)، الأوليات التاريخية لاهتمامات العرب بعلم الاجتماع، المورد، المجلد الخامس عشر، العدد الثالث، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦، ص ٧١.

(3) Moore, W.E. Social Change, Pentice Hall if India (Private) Ltd, New Delhi, 1965, pp. 1 - 2.

(بالنظريات الخطية)، وهناك النظريات الدورية أو الدائرية التى تعتقد بأن المجتمع البشرى يمر بمراحل دائرية[١].

فالعالم دوركهايم قد جاء بنظرية تتشابه تمامًا مع نظرية الفارابى التى تعتمد أساسًا على تصنيفه للمجتمعات، فقد صنف دوركهايم المجتمعات إلى ميكانيكية لا تعتمد على نظام تقسيم العمل ومجتمعات عضوية تعتمد على نظام دقيق من التخصص وتقسيم العمل[٢].

إن نظرية دوركهايم عن التغير الاجتماعى تأخذ بعين الاعتبار العامل الأساسى الذى يكمن خلف حركة التغير والمراحل الحضارية التاريخية التى مر بها المجتمعات البشرية، ويضيف دوركهايم بأن التغير من المجتمع الميكانيكى أو البسيط إلى المجتمع العضوى أو المركب يعتمد على عامل زيادة معدلات السكان بالنسبة لمساحة الأرض وكمية الموارد الطبيعية المتاحة[٣].

وقد لاحظ دوركهايم حينما قارن بين المجتمعات الميكانيكية والمجتمعات العضوية، وأوضح بأن المجتمعات الميكانيكية تخلو من التراكيب الاجتماعية المتداخلة وتخلو من تقسيم العمل، أى عدم وجود تخصصات واضحة للأفراد، أما المجتمعات العضوية فهى التى تتميز بالتراكيب المعقدة وبالخضوع لقاعدة تقسيم العمل وتغلب على هذه المجتمعات سيادة العرف والتقاليد والخضوع لسلطان العادات الاجتماعية[٤].

وأوضح دوركهايم بأن الوظيفة الأساسية لتقسيم العمل هى أن يخلق بين شخصين أو أكثر شعوراً بالتضامن، كما يرمى إلى إحداث التماسك والترابط بين الأصدقاء ومثال ذلك المجتمع البدائى، ذلك أنه لما كان كل من الرجل والمرأة مختلفين، فإن كل منهما يبحث عن العاطفة لدى الآخر، وبعبارة أخرى فإن تقسيم العمل على أساس النوع يعتبر

---

(١) يوتومور توماس، تمهيد فى علم الاجتماع، ترجمة د. محمد الجوهرى وآخرون، ط١، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية، ١٩٧٢، ص ٤٢٧ - ٤٢٨.

(2) Durkheim, Emile, Division of Labourin in Society, New York, The Free Press, 1956, p. 130.

(3) Ibid, pp. 129 - 131.

(٤) عبد الباقى، زيدان (الدكتور)، التفكير الاجتماعى، نشأته وتطوره، مطبعة دار الفكر العربى، ط٣، القاهرة، ١٩٨١، ص ٣٢٨.

مصدر للتضامن الزواجى، ولهذا فإن العمل وفق هذا النوع أخذ فى التقسيم شيئًا فشيئًا، فمنذ زمن بعيد اعتزلت المرأة شؤون الحرب والشؤون العامة وكرست حياتها لأسرتها، وبذلك يتضح أنه إذا كان تقسيم العلم يؤدى إلى زيادة الوظائف المقسمة والمخصصة فإنه يحدث التضامن بين الأفراد والجماعات، وإذا كان هذا يصدق بالنسبة للمجتمعات البدائية، فإنه يعد كذلك بالنسبة للمجتمعات المعاصرة[1].

أما المفكر العربى الفارابى فقد سبق دوركهايم بقرون عديدة فى توضيح طبيعة التغير الاجتماعى من خلال شرحه للمجتمعات الكاملة والمجتمعات الناقصة موضحًا بأن المجتمعات الناقصة بمرور الزمن وبسبب طبيعة القيم والمثل الأخلاقية تتغير إلى مجتمعات كاملة يسود فيها أنواع مختلفة من التضامن الاجتماعى المتصلة بعضها بالبعض الآخر كالتضامن السياسى والتضامن الدينى والتضامن الاقتصادى والتضامن الأسرى، وإن أى تغير يطرأ على أى الأنواع من التضامن فإنه يؤثر على الأنواع الأخرى ويغيرها من نمط إلى آخر، وأضاف بأن المجتمع الكامل هو الذى تتحقق فيه السعادة للأفراد على أكمل وجه، وتطغى عليه مبادئ العدالة والحق ويعيش فيه الأفراد على نحو من التكامل والوفاق، وأوضح بأن السعادة التى ينالها الأفراد فى المجتمع الكامل لا يمكن أن تتحقق وتكون شاخصة، إلا إذا تعاون الأفراد فيما بينهم، واختص كل واحد منهم بالعمل الذى يحسنه وبالوظيفة المهيأ لها وفق طبيعته البيولوجية أو الوراثية. وأضاف أن المجتمع الكامل يعتمد على مبدأ التعاون بين أفراده وفئاته الاجتماعية مهما تكن تخصصاتها الوظيفية وأعمالها. الفارابى يقسم أبناء المجتمع الكامل على ثلاثة مجموعات حسب الأعمال التى تمارسها هذه المجموعات، فهناك مجموعة القادة والحكام ورجال الدين، ومجموعة العسكريين والجنود المدافعين عن المجتمع، وأخيرًا مجموعة من الصناع والفلاحين الذين ينتجون ويوفرون للمجتمع ما يحتاجه من طعام وكساء ولوازم ومعدات وتقنيات يحتاجها المجتمع فى حياته اليومية.

وخلاصة آراء الفارابى فى هذا الصدد تكمن فى اجتماع الاس بعضهم ببعض لتكوين مجتمعات كاملة ومجتمعات ناقصة، فالأولى هى ما يتحقق فيها التعاون

(1) Martindale, Don, The Nature and Types of Sociological Theory, Boston, Hounghton, Mifflin Co. 1981, p. 370.

الاجتماعى بوجه كامل والثانية هى التى لا يتحقق فيها التعاون بصورة كاملة ولا ستتطيع أن تكفى نفسها بنفسها[١].

إن المجتمع الناقص لا يعرف أهله الآراء الفاضلة، وهو من المجتمعات التى أصابها انحراف حيث يعلم أهلها ما يعلم به أهل المجتمع الفاضل من أسباب السعادة والكمال، ويعتقدون بذلك إلا أن أفعالهم تكون مثل أفعال المجتمع الجاهل، فهم يقولون بما يقوله أهل المجتمع الفاضل غير أن أفعالهم تختلف كل الاختلاف عن أفعال وممارسات المجتمع الفاضل[٢].

أما العالم هربرت سبنسر فإنه شبه المجتمع البشرى بالكائن الحيوانى الحى، وأوضح بأن هذا التشابه لا يقف عند حد الأجزاء التى تتكون منها الكائنات بل يتجاوز إلى الوظائف والتكامل والتغير، وأوضح بأن تكامل المؤسسات يرجع إلى مبادئ التطور والتغير، فعند تغير المؤسسة الاقتصادية أو السياسية فإن هذا التغير لا بد أن ينعكس على بقية المؤسسات البنوية وبالتالى يحدث التغيير[٣].

وأضاف سبنسر بأن الكائن العضوى ينم ويتطور فالرضيع ينمو حتى يصبح كبيراً والدولة تنمو حتى تصبح إمبراطورية. وإن كل المجتمعات والكائنات العضوية تنمو وتتطور فى الحجم، فهناك كائنات بدائية بسيطة وكائنات عليا معقدة وهناك مجتمعات بسيطة ومجتمعات مركبة ومعقدة.

وقال سبنسر بأن التطور سواء فى المجتمع أو الكائنات العضوية يؤدى إلى تباينات فى البناء والوظيفة وكل منها يجعل الآخر ممكنًا. واستطاع سبنسر التوصل إلى قانونه الكونى المتعلق بالتقدم الطبيعى والعضوى والاجتماعى، ذلك التقدم الذى تتحول فيه الأشياء المتجانسة إلى أشياء مختلفة ومتشعبة كل منها يختص بأداء عملية معينة تختلف

---

(١) وافى، على عبد الواحد (الدكتور)، آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى، مؤلفات الجمعية المصرية لعلم الاجتماع، القاهرة، ١٩٥٠، ص ٧ - ١٠.

) الحسن، إحسان محمد (الدكتور)، رواد الفكر الاجتماعى، دراسة تحليلة فى تاريخ الفكر الاجتماعى، مطبعة دار الحكمة للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٩١، ص ٣١ - ٣٣.

(3) Spencer, Herbert, The Evolution of Society, Chicago University Pree, 1967, p.8.

عن العمليات الأخرى، ثم لا تلبث هذه العمليات أن تتجمع فى وحدة متكاملة تساعد على ديمومة الحياة الطبيعية الاجتماعية[١].

وبهذا فإن العالم هربرت سبنسر فسر ظاهرة التغير الاجتماعى تفسيراً علميًا حيث أوضح بأن المجتمع يتطور ويتحول من مجتمع بسيط بتركيبه ووظائفه إلى مجتمع معقد ومتشعب، واعتمد سبنسر فى تفسيراته على آراء جارس دارون التى عبر عنها فى كتابه «أصل الأنواع» الذى أوضح بأن المجتمع تنتابه عمليات تحول تاريخى وحضارى.

وقد سبق ابن خلدون سبنسر وغيره من العماء فى تفسير التغير الاجتماعى حيث يُعد من أشهر علماء الاجتماع التاريخيين الذين يؤمنون بحتمية تغير المجتمع من نمط إلى نمط آخر. وأوضح بأن المجتمع فى حركته التحولية هذه يمر فى ثلاث مراحل أساسية هى مرحلة البداوة والمرحلة الريفية وأخيراً المرحلة الحضرية. وأشار ابن خلدون إلى أن البدو غالبًا ما يشنون غزواتهم على المدن فيغيرون أنظمة الحكم فيها، وعندما تتغير أنظمة الحكم تتغير معها بقية المعالم الاجتماعية والحضارية المصاحبة لتلكل المدن، ومما تقدم يتضح لنا بأن ظاهرة الصراع الاجتماعى التى تأخذ مكانها فى المجتمع هى المحرك الأساسى لعملية التغير[٢].

لقد درس ابن خلدون حتمية التغير التاريخى للظواهر والنظم العمرانية بالإضافة إلى دراسته لحتمية التغير التاريخى للمجتمع. وشرح قوانين الحركة والتطور التى تشبه قوانين الكائنات الحية فى العالم الطبيعى وهى كائنات لا تقف على حالة واحدة وإنما تتطور قوانين الكائنات الحية فى العالم الطبيعى وهى كائنات لا تقف على حالة واحدة وإنما تتطور من الصغر إلى النمو والكبر والهرم. وبهذا تأخذ نظريته شكلاً حيويًا بيولوجيًا يقارن فيه المجتمع بالجسم الحى، وفى هذا الاعتقاد يسبق ابن خلدون أوكست كونت من ناحية فكرة تطور الحياة الاجتماعية ويسبق سبنسر ودوركهايم فى فكرة التطور الاجتماعى، فالمجتمع يتغير من شكل لآخر ويمر بمراحل حضارية مختلفة، مثله فى ذلك مثل الكائن الحيوانى الحى[٣].

---

(1) Spencer, Herbert, Essays, Scientific, Political and Specutative, New York, Appleton, 1892, Vol. 1. p. 19.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، دار العلم للبنانى، بيروت، ١٩٧٨، ص ٢٥ - ٣٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٠ - ٧٥.

٥ - الصراع الاجتماعى:

إن الفكر الاجتماعى بصورة عامة يؤكد على أهمية الصراع الاجتماعى، ولهذا فإن أوكست كونت كغيره من العلماء اهتم بالبحث عن النظم والأحكام الاجتماعية الضرورية والظروف الموضوعية التى تستطيع تحقيق التكامل والتوافق الاجتماعى الذى كان الإنسان آنذاك بحاجة ماسة إليه. وأوضح بأن التكامل الاجتماعى ينقذ المؤسسة الاجتماعية من احتمالية وقوع الصراع بين أفرادها[١].

هناك آراء أخرى تقول بأن التكامل بين المؤسسات الاجتماعية لا يعمل على إنقاذها من الصراع الذى تتعرض إليه، إذ إن الصراع هو ظاهرة حتمية لابد من ظهورها فى المؤسسات أو أن أعضاء المؤسسات لا بد أن يكونوا فى حالة صراع الواحد مع الآخر.

إن عمليات التكامل الاجتماعى أو الإجراءات السلمية التى يتخذها المجتمع بصدد الصراع القائم فيه لا يمكن أن تنجح فى القضاء عليه أو تخفيف وطأته.

إن المحاولة الرئيسية التى تفسير الصراع تفسيراً منطقيًا تكمن فى أفكار ومبادئ كارل ماركس[٢].

إذ إنه يعتقد بأن طبيعة العلاقات الاجتماعية للإنتاج هى التى تسبب الصراع الذى ينعكس فى جميع المؤسسات الاجتماعية التى يتكون منها المجتمع[٣].

فالمؤسسة الواحدة حسب اعتقاد ماركس تكون من طبقتين أساسيتين هما الطبقة الحاكمة وهى الطبقة البرجوازية والطبقة المحكومة، وهى الطبقة البروليتارية، فالطبقة البرجوازية هى التى تمتلك وسائل الإنتاج بينما الطبقة الثانية لا تمتلك أى شىء عدا الجهود البشرية التى تبيعها بأجر زهيد إلى الطبقة الحاكمة، لكن الواقع الطبقى للمجتمع

---

(١) زايتلن، إرفنج، النظرية المعاصرة فى علم الاجتماع، ترجمة د. محمود عودة ود. إبراهيم عثمان، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٩، ص ١٧٧ - ١٨٤.

(٢) يوتومور توماس، الطبقات فى المجتمع الحديث، ترجمة د. محمد الجوهرى وآخرون، دار الكتب الجامعية، مصر، ١٩٧٢، ص ٢١ - ٢٥.

(3) Giddens, A. Capitalism and Modern Social Theory Analysis of Writings of Marx, Durkheim and Max Weber, Cambridge University Press, 1971, p. 46.

الرأسمالى يعكس الحالة التى تعتقد فيها كل من الطبقتين بأنها المالكة الشرعية لوسائل الإنتاج والمؤسسات الاقتصادية والسياسية ومثل هذا الاعتقاد الذى تحمله الطبقتان المتصارعتان يؤدى إلى حدوث الصراع بينهما إذ سرعان ما ينتشر هذا الصراع فيشمل جميع مؤسسات وقطاعات المجتمع. ويضيف ماركس بأنه عندما ينشب الصراع بين الطبقات تظهر الدولة لتتحمل مسؤولية تخفيف حدة الصراع وعدم مجابهة الطبقة الاجتماعية للطبقة الأخرى. ويقول أيضًا بأن الصراع يحدث بين القبائل عندما تتفاوت الأحوال المعاشية والاقتصادية بين الأفراد والجماعات[١].

وعندما ظهرت الدولة تمكنت من تكوين سلطة متنفذة وقادرة على الوقوف فوق مصالح الطبقتين المتصارعتين، وقد منحت هذه السلطة قوة كافية لتحل الخصام وتنشر الأمن والطمأنينة والسلام فى ربوع المجتمع.

وقد اهتم ماركس بمسألة الصراع (Confliet) واعتبر الصراع حقيقة قائمة بين طبقات المجتمع البشرى ولا يمكن التخلص منها إلا بتحقيق مجتمع عديم الطبقات. وذكر بأن الصراع بين الطبقات أشغل جميع المراحل التاريخية التى مرَّ بها المجتمع الإنسانى ابتداءً من المرحلة المشاعية وانتهاءً بالثورة البروليتارية[٢].

وأضاف بأن الاتفاق والانسجام والتكامل لا يمكن أن يتحقق إلا بعد القضاء على الطبقات الاجتماعية والصراع الطبقى ولا يتم هذا القضاء إلا بعد اجتياز المجتمع البشرى للمراحل المتقدمة للاشتراكية ودخوله فى مرحلة المجتمع الشيوعى.

وبهذا فإن نظرية ماركستنطوى على نظامين اجتماعيين متكاملين: نظام يسوده الصراع، ونظام آخر يسوده التضامن والانسجام[٣].

مما تقدم أن الصراع حسب آراء ماركس يحدث بين الطبقات ويحدث بين القبائل والأفراد والجماعات، ولو رجعنا إلى تاريخ الفكر الاجتماعى العربى لوجدنا أن ابن خلدون قد سبق ماركس فى حديثه عن الصراع الاجتماعى بين القبائل وخاصة عندما

---

(1) Marx, K., and Engels, F. Selected Works, Moscow, 1975, p. 472.

(2) Freedman, R. Marx on Economics, Apelican Book, Middie sex, England, 1968, pp. 5 - 7.

(3) Marx, K. Capital, Foreign Languages Publishing House, 1962, Vol. 3, p. 427.

تضعف العصبية القبلية عند القبيلة التى استولت على الحكم قبل فترة من الزمن واستقرت فى المدينة وتكيفت لبيئتها فضعفت عندها العصبية القبلية. وعندما تعرضت المدينة (الملك) إلى الغزو القبلى القادم من الصحراء أى غزو البدو للمدينة فإن المدينة تسقط على أيدى الغزاة؛ لأن الغزاة يتسمون بعصبية قبلية أقوى من تلك التى يتسم بها الحام أو السلطان الذى يحكم المدينة. وعندما يستولى الغزاة على الحكم فى المدينة فإنهم يأخذون بالتطبع بأخلاق المدينة وصفات أبنائها ويتعودون على نعومة العيش وصفاء الحياة والوداعة فتضعف عندهم العصبية القبلية فيتعرضون إلى الغزو القبلى فيسقط الملك كما سقط فى السابق. وهكذا يستمر الصراع بين البداوة والحضارة نتيجة ضعف العصبية القبلية عند أهل المدن[١].

وفى هذا الصدد نستطيع القول أن ابن خلدون قد أسهم فى هذا الميدان إسهامًا أصيلاً، فقد كتب عدة فصول فى المقدمة لمناقشة ما أطلق عليه مصطلح العصبية وأثرها فى الحياة الاجتماعية والسياسية وصلتها بالدولة فى مختلف أطوارها وعهودها.

أما العالم هيجل فطرح فى كتابيه «فلسفة الحق، وفلسفة الدولة» نظريته فى الصراع القومى بين الدول والقوميات، إذ إن لكل دولة قومية توجد أجزاء الدولة وتجعلها قوية وقادرة على الدفاع عن نفسها وشعبها وممتلكاتها وتراثها ومقدساتها ضد الأطماع الخارجية التى تحملها الدول القومية إزاء دولة معينة[٢].

درس هيجل موضوع الصراع بين الدول القومية خلال فترة زمنية معينة، ودرس هيجل ظهور وسقوط الحضارات، إذ يقول فى كتابه «محاضرات فى تاريخ الفلسفة» بأنه كلما سقطت حضارة إنسانية فى بقعة من الأرض ظهرت حضارة أخرى فى بقعة أخرى يقودها شعب وتقودها قومية، والحضارة الأخيرة تكمل الرسالة التاريخية للحضارة المندثرة أو الساقطة[٣].

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن المقدمة، الجزء الأول، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان، بدون سة طبع، ص ١٧٢ - ١٧٥.

(2) Hegel, G. W.F. Philosophy of Right, New York, Dover, 1949, p. 182.

(3) Ibid., p. 180.

إن أول حضارة بشرية ظهرت للعالم هى الحضارات الشرقية لا سيما حضارة وادى الرافدين ووادى النيل وحضارات الصين واليابان القديمة. وقد قاد هذه الحضارات شعوب لها قوميات معروفة. وعند سقوط الحضارات القديمة حلت محلها الحضارة اليونانية الى لعب فيها الشعب الإغريقى أو اليونانى الدور القيادى فى إنضاجها وبلورتها وتقدمها. ولكن سرعان ما انهارت هذه الحضارة وحلت محلها الحضارة الرومانية فى بلاد الرومان. وقد وهبت هذه الحضارة الشىء الكثير لتطور العلوم والفنون والآداب والفلسفة والأخلاق.

فازدهرت هذه الحضارة وأينعت إلى أن وصلت ذروتها فى التقدم والتطور، بعدها أخذت تضعف وتضمحل إلى أن انتهت وحلت محلها حضارة العرب والمسلمين فى مكان آخر من الأرض وهذه الحضارة كغيرها من الحضارات وهبت الشىء الكثير للحضارة الإنسانية إلى أن بلغت ذروتها فى التقدم والتطور والازدهار بعدها اضمحلت وحلت محلها الحضارة الأوروبية التى فيها ظهرت قوميات وشعوب أوروبية مختلفة، وأخذت تقدم الهبات العلمية والتقنية والأدبية والفلسفية والأخلاقية ولكن القومية التى برزت وتفوقت على غيرها من القوميات واستطاعت أن تحمل مشعل الحضارة الأوروبية هى القومية الألمانية التى ينتمى إليها الشعب الألمانى الذى هو الآن، أى فى الفترة التى عاشها هيجل وهى الربع الأول من القرن التاسع عشر، القائد الحقيقى للحضارة الأوروبية بالرغم من المنافسة الشديدة التى يلقاها من الشعوب الأوروبية الأخرى فى قيادة زمام الحضارة[1].

لكن ألمانيا برزت فى ميدان العلوم والفنون والآداب والفلسفة وقدمت الشىء الكثير لحضارة الأوروبية، فأصبحت هدفًا للصراع القومى مع الدلو الأوروبية الأخرى التى تريد أن تأخذ مكانها. وهنا يعتمد هيجل قانون الجدل (الدايلكتيك) فى تفسير الحالة الصراعية بين القومية الألمانية والقوميات الأخرى فى قيادة الحضارة الأوروبية التى هى الحصيلة النهائية للحضارة الإنسانية.

إن ظهور الحضارة الأوروبية يجعل كل شعوب العالم تخضع لأوروبا وتنظر إليها

(1) Tomlin, E. The Great Philosophers of The Western World, London, Hutchin son House, 1949, p. 231.

نظرة التقدير والاحترام. ولكن الحضارة الأوروبية يقودها شعب ينتمى إلى قومية هى القومية الألمانية؛ لذا ينبغى على الشعوب الأوروبية أن تخضع للشعب اللمانى لأنه قائد مشعل الحضارة، وهذه الحضارة ليست هى الحضارة الأوروبية فقط وإنما هى الحضارة الإنسانية[١].

إلا أن هذا المركز المتميز الذى تحتله القومية الألمانية فى حمل مشعل الحضارة قد دفع قوميات أوروبية أخرى كالقومية الفرنسية أو الإنجليزية تتنافس بقوة مع القومية الألمانية لاحتلال مركز الصدارة فى حمل مشعل الحضارة الإنسانية. والصراع هنا إذن يكونبين القوميات كما يعتقد هيجل وليس بين الحضارات كما يعتقد شبلنجر وسمبارت وتوينبى[٢].

والصراع بين القوميات كما يفسره هيجل فى قانونه الجدلى التاريخى هو أن ما هو موجود هو الفكرة التى تنبع من أحشائها فكرة مضادة فيحدث الصراع بين الفكرة والفكرة المضادة ومن هاتين الفكرتين المتصارعتين تظهر الفكرة الثالث التى تحل الصراع حلاً توفيقيًا وسطًا يعترف بجزء من صحة الفكرة وجزء من صحة الفكرة المضادة[٣].

يطبق هيجل قانونه الجدلى التاريخى هذا على مسألة الصراع بين القومية الألمانية من جهة والقوميات الأوروبية الأخرى لا سيما القومية الفرنسية من جهة ثانية، فيقول بأن الفكرة هى القومية الألمانية والفكرة المضادة هى القومية الفرنسية التى أعطاها نابليون البعد العسكرى السياسى الذى جعلها تريد أن تسيطر على بقية القوميات وتنتزع مشعل الحضارة من يد القومية الألمانية، كما أن القومية الإنجليزية تريد أن تفعل الشىء نفسه بالقومية الألمانية والقومية الفرنسية. والعصر الذى نعيش فيه هو عصر الصراع بين القوميات، القومية التى تريد أن تفوز على القوميات الأخرى وتحمل شعل الحضارة[٤].

---

(1) Ibid., p. 227.

(2) Ibid., p. 228.

(3) Martindale, Don, The Nature and Types of Sociological Theory, Boston, Hounghton, Mifflin Co. 1981, p. 151.

(4) Kaufmann, W.A. Hegel: Spotlitical Philosophu, New York, Atherton Press, 1970, p. 120.

إذن الصراع هو بين القومية الألمانية التى تشكل الفكرة والقومية الفرنسية التى تشكل الفكرة المضادة، وهذا الصراع سيتهى بظهور فكرة ثالثة تحل الصراع حلاً وسطًا. والتاريخ هو الذى سيكشف من هى القومية التى تشكل الفكرة الثالثة هل هى القومية الإنجلزية أو الإيطالية أو غيرها من القوميات[1].

من هنا تتضح أفكار هيجل الصراعية التى كان يرى فيها أن الصراع ليس هو بين البداوة والحضارة، كما ذكر ذلك ابن خلدون، ولا هو بين الطبقات كما أكد ذلك كارل ماركس، ولا هو بين الحضارات كما أكد سمبارت وتوينبى وشبنجلر، وإنما هو بين القوميات. القوميات التى تريد أن تحمل مشعل الحضارة وبالتالى تقود الحضارة الإنسانية برمتها[2].

وهذا ما أرادت فرنسا أو ألمانيا القيام به فى الربع الأول من القرن التاسع عشر. أما سبب الصراع القومى أو الصراع بين القوميات فهو النزعة إلى التوسيع والسيطرة على الآخرين وبالتالى اكتساب الشهرة والمنجزات المادية والحضارية.

ولو رجعنا إلى تاريخ الفكر الاجتماعى لوجدنا أن آراء هيجل متأثرة بأفكار ابن خلدون، حيث إن هيجل تأثر بفلسفة التاريخ عند ابن خلدون التى تؤكد على أن معرفة الماضى تساعدنا على فهم الحاضر، وفهم الحاضر والماضى يساعد على تنبؤ المستقبل واستنباط قوانين عامة تفسر مسيرة التاريخ فى المستقبل. والملاحظ أن ابن خلدون وهيجل يفسران التاريخ تفسيرًا صراعيًا، حيث يؤكد ابن خلدون على أن الصراع بين الحضارة والبداوة يقود إلى التغير، وهذا ما أشار إليه هيجل عندما قال بأن الصراع بين القوميات يقود إلى التغير، والتغير هو أن قومية تظهر وتسيطر على القوميات الأخرى.

وهذه نفس الفكرة التى أشار إليها ابن خلدون عندما قال بأن قبيلة من البادية تغزو المدينة وتسيطر على الملك فيها.

من خلال دراسة صورة الصراع بين القوميات التى وضحها هيجل فى سياق دراسته لفلسفة التاريخ التى تستند برأيه على التغير الذى يحدث فى المجتمع نتيجة

---

(1) **Ibid.**, p. 124.

(2) **Hegel**, G. W.F. The Philosophy of History, London, 1956, pp. 23 - 25.

الصراع بين القوميات نستطيع أن نقـول بأن المفكر الألمانى هيجل فى دراسته هذه قد تأثر بأفكار ابن خلدون الصـراعـية التى ترى بأن الصـراع بين البـداوة والحضـارة يؤدى إلى التغير، والتغـير فسره ابن خلدون بفلسفته للتاريخ إذ أشـار إلى أن المجتمع هو فى حالة تحول مـستمر من طور إلى طور آخـر. وعليه تتوضح الآثار التى تركـها ابن خلدون فى الفكر الفلسفى العلمى التاريخى الذى جاد به هيجل عندما درس الصراع بين القوميات.

***

obeikandl.com